بين مفاهيم التصوف الإسلامي والمفاهيم المسيحية للتصوف والرهبنة
دراسة مقارنة

د . سعد عمر السهولي
جامعة الفاتح

المعنى اللفظي والمعنى الاصطلاحي للتصوف

يكثر البحث وتتعدد الآراء في موضوع نشأة التصوف الإسلامي وتطوره ، وبيان أصوله وعلاقته بالتصوف المسيحي ، ولكن الآراء تكاد تتفق في اشتقاق الكلمة من كلمة الصوف . اللفظ الذي يعبر به على الخشن من اللباس ، وعلى حياة العوز والفاقة ، حياة دون مستوى الفقر ، وبذلك أصبح المتصوف هوذاك الذي يعيش حياة ، تفتقر إلى أبسط أنواع الحياة الإنسانية العادية ، حياة مجردة من كل مظاهر الرفاهية في الأكل والملبس والمسكن ، وكل ذلك كان يتم من أناس سُموا بالمتصوفة ، يرغبون في هذا النوع من الحياة ، ويحبون حياتهم المعوزة بدافع ذاتي ، أعني أن المتصوف جعل نفسه هكذا بمحض إرادته ، وبوازع من ضميره وتفكيره ، وبفعل يديه ، وإن كل ذلك كان يقوم به طوعاً لا كرها ، أي أن المتصوف يعيش هذا النوع من الحياة مؤملاً أن ينال رضا إلهه الذي يعتقد ويحظى بقربه ، ولذلك ورد مفهوم التصوف بهذا المعنى في عدد غير قليل من الثقافات ، فعند الفرس نجد كلمة باشمينا – بوش ، تعنى لابس الصوف ، وعند الإغريق نجد كلمة سوفس تعنى ذلك أيضاً ، وتعنى المتجنب للرفاهية بمحض

إرادته ، وعن طيب خاطر راغباً في الحصول على رضا الله[1] ، وتعنى الحكمة [2] ، ونلمس هذا المفهوم للمتصوف في معظم الثقافات الآسيوية كالبوذية والطاوية والزرادشتية والهندية ، فالترهبن والتبتل وتعذيب الجسم وعدم الكسب والاعتماد على التسول والصدقات ، هو منهج الرهبنة الهندوسية والبوذية ، فحتى الآن يلحظ المرء على الرهبان الهندوس أنهم يطلقون لحاهم وينعزلون في الأديرة ويحملون طاسة للتسول بأيديهم [3] ، ولقد ورد اسم المتصوف عند بعض المسلمين[4] على أنه مشتق من الصفا ،[5] ويعنون بذلك صفا النفس الذي يأت بالتطهر ، وأن التطهر يكون بدافع من الزهد ، أي أن المسلم يترك كل متاع الدنيا ويعذب نفسه ، ظناً منه أنه بذلك ينال رضا خالقه ، هذا ويقول السراج الطوسي أبو نصر في هذا المعنى « إن المتصوف ينسب إلى الصفا صفاء الأسرار ونقاء الآثار [6] ، ويقول : « إن المتصوف لا يملك شيئاً ولا يمتلكه شيء » [7] .

ويقول بشر بن الحارث الملقب بالحافي في هذا المعنى : « الصوفي من صفا قلبه لله » [8] . ويرى أحمد علي زهرة « أن تنتسب الصوفية إلى الصفا فهو أكثر رجحاناً لأن فكرة الصفا والصفوة كانت هدفاً سياسياً ودينياً واجتماعياً لعدد من الحركات الثورية التي كانت تحمل أهدافاً محددة في قلب المفاهيم السياسية التي كانت قائمة وقلب

---

(1) دي لاسي أوليري: الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1972م ، ص 155 .

(2) سوفيا اليونانية : تعني الحكمة .

(3) انظر إلى أحمد علي زهرة: الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، مطبعة نينوني ، ط1 ، 2004 ، ص 21 ، 30 ترى أثر الشرق في نشأة الرهبنة المسيحية .

(4) أهل الصفا: هم جماعة من فقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم فلجأوا إلى المسجد ، مسجد رسول الله – الصفة – وهم الذين وصفهم أبو هريرة بقوله: يخرجون من الجوع حتى تحسبهم مجانين وكان لباسهم الصوف حتى كان بعضهم يعرق فيه ... : أحمد علي زهرة ، الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، متولي للنشر والتوزيع، سورية ، ط1 ، 2004 ، ص13 .

(5) نفسه ، ص 10 .

(6) نفسه ، ص 11 ، 13 .

(7) نفسه ، ص 14 .

(8) نفسه ، ص 14 .

المفاهيم الاجتماعية والدينية كذلك [1]، وعلى هذا الأساس ، كما يقول أحمد علي زهرة ، قامت جمعية أخوان الصفا وخلان الوفا ، وكان ظهور هذه الجماعة في الوقت الذي ظهرت فيه الصوفية ، وبهذا نرى أن أحمد علي زهرة يرى في التصوف عملية فكرية منظمة لها أهداف ، ومّرت بمرحلة التنظيم السري إلى مرحلة الجهر العلني ، هذا ويأتي البعض بتعريف عام للتصوف « على أنه ترك كل حظ النفس وأن يختصك الله بالصفا فمن اصطفي من كل ما سوى الله فهو صوفي » [2] . كما يقول أبو القاسم الجنيد وإن التصوف ما هو إلاّ استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده ، كما يقول رويم بن أحمد البغدادي [3] ، إن التصوف ما هو إلاّ التبروء عمن دونه والتخلي عمن سواه ، وإنه ضبط الحواس ومراعاة الأنفاس والجلوس مع الله بلا هم [4] ، كما يقول أبو بكر الشبلي هذا ، ويرى الإمام الغزالي أن التصوف الإسلامي ، ما هو إلاّ عمل مبني على العلم وقطع عقبات النفس والتبرء عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تجلية القلب عن غير الله ، وتحليته بذكر الله ، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل [5] ، ويرى أبو الحسن النوري ، أن الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا لا مالكين ولا مملوكين ، أي أنهم لا يتبعون الهوى [6] ، ولعل من الجدير بالإشارة ذلك القول الذي يرى في التصوف أنها تنسب إلى رجل يُدعى صوفة ، واسمه الغوت بن مر ، لأنه كان ينفرد بخدمه الله تعالى عند البيت الحرام ، وروى عنه أن أمه كانت لم يعلق لها ولد قبله ، فنذرت إن سلم لها ستعلق في رأسه صوفة ، وتجعله ربط الكعبة ، ففعلت به ذلك ، وقيل له صوفة ، ومن بعده قيلت لولده [7] .

لقد عُرف هذا النوع من التعبير « التصوف » عند المسيحيين ومارسوه فيما يُعرف بالرهبنة ، فالراهب المسيحي كان يتعبد بشكل مفرط متجنباً حياة العوام وحياة

(1) نفسه ، ص 12 .
(2) نفسه ، ص 18 .
(3) نفسه ، ص 14 .
(4) نفسه ، ص 22 .
(5) نفسه ، ص 22 .
(6) نفسه ، ص 22 .
(7) نفسه ، ص 10 .

الخواص من الناس ، وكان يتعمد تجنب أبسط قدر من الرفاهية ، بل ينعزل انعزالاً تاماً عن الحياة العادية ويكثر من الصوم ، ويبتعد عن أماكن تجمع النـاس ، ويتجنـب حتـى اللقاء بهم ، وذلك كان يفعله الراهب المسيحي بمحض إرادتـه ليرقـى بـذلك بنفـسه إلى الحياة الروحية السرمدية القريبة من الله ، وبـذلك يـوفر الـسلامة لنفـسه مـن عقـاب الله، وبالتأكيد يستطيع الباحث المتخصص في هذا الموضـوع أن يكتـشف مـدى تطـابق ، أو تنـافر نـشأة التـصوف الإسـلامي ، بنـشأة الرهبنـة عنـد المـسيحيين ، ومـدى تطـابق أو تنـافر مفهـوم الرهبنـة بمفهـوم الزهـد والتـصوف عـن المـسلمين ، في بعـض المراحـل التاريخية ، فالرهبنة هي التصوف إلى حد كبير ، هي التقشف والانعزال والانطـواء علـى النفس وهي الزهد في متع الحياة [1] .

نشأة الرهبنة المسيحية

تعود نشأة الرهبنة المسيحية بشكل واضح وملموس ومعروف ، إلى القرن الرابـع الميلادي ، وذلك عندما اعتنق الإمبراطور الرومـاني قـسطنطين الأول المـسيحية ، فخـف الضغط على المسيحيين وشعروا بالحرية في الاعتقاد ، وتحـسروا علـى مـا فـاتهم مـن تضحيات من أجل المسيح بالروح والدم ، وشعر بعـضهم أنـه أصـيب بخـسران مـبين ، فقرر هؤلاء أن يضحوا بمتع الحيـاة تعويـضاً لمـا فـاتهم ، فلجـأوا إلى التفـرد بالجبـال وابتعدوا عن مفاتن الحياة ، وعمدوا إلى حرمـان أنفـسهم وتعـذيب أجـسادهم بـالجوع والعطش والخشن من الثياب [2] ، وعمدوا إلى حياة التبتل والعكوف على العبادة ، عملوا كل ذلك أملاً في تنقية النفس وطهارتها التامة من كل الشوائب .

وقد مرّت الرهبنة بمراحل ، كانت المرحلة الأولى منها هروباً مـن النـاس وبُعـداً عن المدن والقـرى المكتظـة بالـسكان ، انطلاقـاً مـن الـصحاري والـبراري ، فلجـأوا إلى الكهوف بقصد محاربة الشهوة الجسدية التي توقع في الزلـل ، وأخـذوا يحـافظون علـى الوحدة والتفرد ، وشيئاً فشيئاً كثر عدد الرهبان ومالوا إلى نـوع مـن الحيـاة الاجتماعيـة والمعاشرة ، فبنوا لهم صوامع متجاورة ، وانتهى بهم الأمر إلى بناء أسـوار تحتـضن هـذه

---

(1) انظر إلى بيار غريمال ، مارسيل باكو: موسوعة تـاريخ أوروبـا العـام ، منـشورات جـاك بيـارميوت ، رينـه راينـال ، عويدات ، بيروت ، باريس ، طبعة1 ، ج1 ، ص 394 .

(2) سعد رستم : الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليـوم ، الأوائـل للنـشر والتوزيـع ، طبعـة الأولى ، 2004 ، ص 105 .

الصوامع التي كثرت في عهد الراهب أنطوان إلى ما يربو على خمسة آلاف صومعة [1] وكثرت الأديرة [2] كذلك ، الأديرة التي تضم هذه الصوامع ، وانتشرت في بلاد الشام ثم في أوروبا وفي العالم أجمع ، هذا ويرى المسيحيون الذين يعتقدون الرهبنة أنهم ينفذون أمر المسيح عيسى عليه السلام ويروون قوله للتدليل على ذلك ، للشاب الغني الذي جاء يطلب من المسيح أن يدله على الخلاص فقال له : « لا تزن ولا تسرق ولا تشهد بالزور وأكرم أباك وأمك واحبب قريبك كنفسك وإن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء » ويستند المسيحيون في تركهم للزواج على وصايا المسيح بقوله : لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يحتمل فليحتمل [3] .

أما لجوء المسيحيين إلى البراري والجبال ، فمقتبس كذلك من أفعال المسيح عليه السلام الذي كان يصعد إلى الجبل حين يريد أن يصلي أو يعلم الجموع ، كما أن هذه الممارسات جميعها ، كان يفعلها يوحنا المعمدان الذي كان يعيش في البرية معظم حياته ، ولعل من الجدير بالملاحظة أن الرهبنة المسيحية أشبه ما تكون بالرهبنة البوذية، بل برهبنات الشرق الأقصى ، مع وجود فارق هام بينهما ، وهوأن الأديان بالشرق الأقصى كانت تقتصر على الانعزال عن الحياة والسعي للخلاص الروحي للنفس فقط، في حين أن الرهبنات المسيحية مع سعيها الدوؤب لخلاص المنتظمين فيها ، فإنها تقوم بأعمال إنسانية وخدمات مجانية للمحتاجين إليها ، من المرضى والجرحى والأرامل واليتامى والمساكين [4] ، كما أنها أي الرهبنة المسيحية « أشبه ما تكون بالزهد والتصوف عند المسلمين » ولو أن العلاقة بين الزهد والتصوف الإسلامي والرهبنة المسيحية كانت

---

(1) نفسه ، ص 105 . وانظر إلى أحمد شلبي ، مقارنة الأديان: ج2 ، المسيحية لترى تفصيلا أكثر .

(2) كان النظام في هذا النوع من الرهبنة أن يعيش الزاهد الراهب منزوياً منفرداً فيرسم لنفسه النمط الذي يوافق ميوله التنسكية من تقسيم لساعات العمل وساعات العبادة ، ويرسم نوع عبادته من صوم أو انقطاع عن الطعام لمدّة طويلة أو للتفكير العميق ، ولم تكن هناك طرق أو قوانين يسير عليها الراهب في جميع الأديرة . مصطفى زيادة ، محاضرات 1940م ، جامعة محمد الخامس .

(3) إنجيل متى ، ص 14 ، 16 . نقل عن كتاب: سعد رستم ، الفرق والمذاهب المسيحية ، مرجع سابق ، ص 106 .

(4) نفسه ، ص 116 ، 120 .

أكثر تعقيداً مما يتصوره البعض ، فعندما تنظر إلى قواعد التعبد الصوفي عند المسلمين، نجدها ترتكز على التقشف والزهد وهذه هي قواعد الترهبن .

أوجه الشبه والتطابق بين الرهبنة المسيحية والتصوف الإسلامي

كانت كلمة "راهب" تطلق في بعض الأحيان على الزاهـد المـسلم [1] ، تأكيـداً مـن المسلمين لأوجه الشبه بين مجاهدات هؤلاء الزهاد ، وأسلوب حياة الراهـب المـسيحي، فلقد سُمي أبو بكر بن عبد الرحمن براهب قريش، بسبب إقبالـه الكـثير علـى الـصلاة، وأطُلق اسم راهب العرب على مالك بن دينار ، كما دُعي كعب الأحبـار بحـبر العـرب، وكـان المـسلمون ينظـرون إلى الأسـود بـن يزيـد علـى أنـه راهـب مـن الرهبـان ، لأنـه كان مجتهداً في العبادة يصوم حتى يخضر جسده ويصغر [2] ، وكـان علقمـة بـن قـيس يقول له : لم تعذب هذا الجسد؟ فيجيب : راحة هذا الجسد أريد .

كما أن المسلمين كانوا يرون في سرور بن عبـد الـرحمن الكـوفي الهمـداني أنـه راهب لكثرة صلاته وتفرغه الكامل لها ، لدرجة أنه كان يقول لأهله : هـاتوا كـل حاجـة لكم فاذكروها لي قبل أن أقوم إلى الصلاة [3] ، إذا يبدو لنا من هـذه الأمثلـة أن الراهـب هو الزاهد ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فمصطلح الراهب لم يطلـق كمـصطلح عـام علـى الزهاد إلاّ في حالات استثنائية كـالتي ذكـرت ، ويـرى الـبعض أن الفـرق بـين الراهـب والزاهد والصوفي الإسلامي أن الراهب يتخذ لنفسه صومعة أو ديراً ، يتعبد فيـه منعـزلاً عن الناس ، بينما الزاهد لا يتخذ لنفسه مثل هذه الصوامع أو مثل [4] هـذه الأديـرة ، بـل يتخذ من بيته مكاناً للعبادة الخاصة ، فيكف لسانه ويحفظ فرجه ويغض بصره .

الفرق إذاً واضح وجلي بين الرهبنة المسيحية والتصوف الإسـلامي ، ويـبرز ذلـك في الغاية التي يمـارس كـل منهمـا عبادتـه مـن أجـل تحقيقهـا ، فالراهـب المـسيحي ـ خصوصاً بعد القرن الرابع الميلادي ـ كان يمارس تعبده تنفيذاً لاعتقاده الـذي يتمثـل في أن الروح حبيسة الجسد ، وهي تستعيد حريتها بالقدر الذي يهزل به الجسم ويضعف [5]

---

(1) توري أندريه: التصوف الإسلامي ، ترجمة عدنان عباس علي ، منشورات الجمل ، 2003 ، ص 24 .
(2) نفسه ، ص 24 .
(3) نفسه ، ص 25 .
(4) نفسه ، ص 26 .
(5) شيد بعض الزهاد أو المتصوفة المسلمين في المراحل الأولى من التاريخ الإسلامي في دورهم الخاصـة صـوامع أو

والراهب المسيحي يعتقد أنه مخلوق بجسم وروح ، وأن الجسم مخلوق من الأرض ، والروح مخلوق ملكوت السموات ، فإذا أجاع الراهب الجسم وأُعراه وأسهره ، نازع الروح إلى الموضع الذي خرج منه ـ أي اقتربت الروح من الله ـ وإذا أطعم الراهب الجسم وسقاه وأراحه ، وأخلد البدن إلى الموضع الذي خرج منه أصبح أقرب إلى الأرض والحياة الدنيا [1] .

ولعل من المفيد القول إن مجالات الزهاد المسلمين لأخذ المزيد من نمط حياة التعبد عند المسيحيين ، كانت تنطلق من الإيمان بأن الراهب المسيحي ما هو إلاّ امتداد طبيعي للسيد المسيح عيسى عليه السلام ، وأنهم بتعبدهم الزائد يحافظون على دينهم السوي ، كما جاء على لسان عيسى ، وأنهم ملتزمون بمنهجه التعبدي الذي لا يتعارض مع القرآن والسنة النبوية الشريفة ، وتنطلق رغبة الزهاد أو المتصوفة المسلمين في الأخذ من تجارب الرهبان المسيحيين من الإحساس باحترام الرهبان لهم ، وتنطلق كذلك من معرفتهم الأكيدة بالتقدير والاحترام الذي يكنه المسلمون الحقيقيون للمسيحيين ، فعندما وجه الخليفة أبو بكر الصديق جيوشه إلى الشام أصدر تعليماته لجنوده قائلاً ستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له [2] .

وكان الزهاد المسلمون يعتقدون ، في القرن الأول الهجري على وجه الخصوص، أن الرهبان النصارى مؤمنون بمبادئ المسيح الأصلية غير المزورة أو المحرفة ، وهذه المبادئ تنسجم مع مبادئ وتعاليم الإسلام ، وأن فرارهم إلى المناطق النائية المقفرة الجرداء كان خوفاً على دينهم وعلى مبادئهم ، وكان خوفاً منهم على أن يكرهوا على الأخذ برأي الذين يقولون : إن المسيح هو الله ، أو إنه ابن الله ، وإنه ثالث ثلاثة .

هذا ويبدو لنا واضحاً القرب الفكري بين المتصوفة المسلمين والرهبان المسيحيين عند ذكر الأنبياء حيث يذكر المسيح عليه السلام أوّلاً ، ويظهر لنا ذلك واضحاً في تسمية بعض الرهبان للزاهد المسلم بصديق المسيح ، ويظهر لنا ذلك أيضاً في النظرة الإسلامية للسيد المسيح ، على أنه الزاهد الأعظم والمثل الأعلى للقديس ، الذي استغنى

أمكنة للتعبد تحت الأرض ، حتى يستطيعوا أن يحيوا من وقت إلى آخر حياة زهدية ، نفسه ، ص 26 .

(1) نفسه ، ص 24 .

(2) نفسه ، ص 32 .

عن الدنيا وارتباطاتها ، فراح يلتحف السماء ويفترش الأرض ، ويتجول ويطلب رزقاً ومالاً حلالاً ، ولا يطلبه من أحد مثل الرهبان في الديانات الآسيوية الوضعية ، ولعل قول علي بن أبي طالب ﷺ : « طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض فراشاً وبساطاً وماءها طيباً والقرآن مصدراً . . فرضوا الدنيا على منهاج عيس المسيح » [1] ولعل هذا القول يمثل صواب التعبد الصوفي على منهج المسيح [2] عليه السلام .

هذا وينقل لنا أبو هريرة قول الرسول ﷺ : « ما من مولود إلاّ والشيطان يمسه حين يولد فيصرخ من مس الشيطان إلاّ مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة: « اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [3]، هذا أكبر دليل على قدسية المسيح عيسى عليه السلام وطهارته .

نخلص إلى القول إن الزهد والتصوف المتبع في الصوامع وفي الأديرة وفي الكنائس ، قد ترك آثاراً كبيرة ومهمة على التصوف الإسلامي والزهد الإسلامي ، ولكن لم يكن النبتة التي ترعرع فيها وتفرع منها ، لأن الراهب المسيحي ، خصوصاً في القرن الرابع الميلادي وما بعده ، كان يسعى إلى التحول من إنسان كائن أرضي مكون من لحم وعظم إلى كائن سماوي قادر على معرفة الذات الإلهية بصورة حقيقية ، وعندما يصل إلى حد الكمال سيغدو كله روحياً أبديا ورباني ، أي أنه حقق اتحاده مع الله المسيح، وبالتالي لم يعد في حاجة إلى الآله المسيح ، فهو نفسه غدا [4] مسيحاً لكماله الروحي [5] .

أما بالنسبة للتصوف الإسلامي ، فهو على العكس من ذلك تماماً ، فهو يتوقف على ما قدّره الله وقضى به ، أي أن مجاهدة النفس لمحبة الله تأتي بعد محبة الله ، أي أن

---

(1) نفسه ، ص 32 .

(2) يرى البعض أن أصل التصوف بدأ مع وجود الإنسان ، وذلك عندما بدأ يبحث هذا الإنسان عن الحقيقة الربانية وقبل البعثة النبوية الشريفة كان عيسى ، عليه السلام ، متصوفاً وبذلك تميز من المتصوفين الذين سُموا بالحنفاء « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » صدق الله العظيم . سورة البينة ، الآية (5) .

(3) آل عمران: من الآية 36 .

(4) توري أندريه ، التصوف الإسلامي ، ص 52 .

(5) هذا بالطبع المنهج التعبدي للراهب الذي يسير وفقاً لمنهج المسيح عليه السلام والمسيح لم يدع مطلقاً أنه الله .

المتصوف الإسلامي يسعى لأن يكون متساويا مع الله ، من خلال المحبة والرأفة والطيبة والرحمة والحنان والصدق والإخلاص ، وهذا يعني أن الروح المؤمنة التي ترتقي إلى مصاف الكمال تصل إلى مرحلة تبدو فيها ، كأنها لم تعد في حاجة إلى الله ، لأنها هي دائماً قد غدت إلهية ، ولكن الهدف هو كلما زاد تكاملها مع الله وفي حبها لله ، كثرت حاجتها إلى الله والله وحده لا غير في شعور الدونية ، ولعل هذا يتمثل في قول كاترين الجنوية « إني لا أرغب في نعمك بل أرغب فيك أنت فقط » [1] ، ولعل هذا يتمثل في قول رابعة العدوية « ما عبدته خوفاً من ناره ولا حبا لحاجة عنده عبدته شوقاً إليه » [2] وفي قول أبي زيد البسطامي « لا أريد من الله إلاّ الله » [3] .

هذا ويفهم المتصوف الإسلامي بشكل إيجابي أن المقصود في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [4] أن الرسول ﷺ ليس الله ، ولكن أعماله ونيته المطلقة في التبشير بالدعوة لوجه الله ، جعلت من روحه قريبة لله ، وحائزة على رضا الله ، ومهما يكن من أمر فإن التبادل الفكري القائم على الثقة في المعتقد عند المسيحيين وعند المسلمين ، كان من مميزات القرن الأول والثاني للهجري ، أما بعد القرن الثالث للهجري فلم يكن هو كذلك ، كما أننا نستطيع القول إن الرهبنة والتصوف كانا نمطا تعبديا في كل البلاد ـ بلاد العالم ـ في الوطن العربي ، وفي الشرق الأقصى ، وفي أفريقيا وفي أوروبا ، ونكاد أن نجزم بأن الترهبن والتصوف السلبي لم يكن وليد تعاليم لأية ديانة سماوية فالمسيح عليه السلام ، عندما كان يحث أتباعه على التخلي عن أمور الدنيا وبيع ما يملكون ، لم يكن قوله ، فيما أرى نبذاً لحياة الناس المميزة عن حياة الحيوان ،[5] وكذلك الأمر في الإسلام ، فالرسول ﷺ لمّا سمع أن بعض الصحابة حاولوا أن يتركوا التمتع بالحياة الدنيا ، حيث أراد أحدهم ألاّ يستمتع بزوجته ، وأراد آخر ألاّ ينام خوفاً من الدهشة في يوم القيامة ، وأراد غيرهم ما يشبه ذلك ، فلما وصل

(1) نفسه ، ص 53 .
(2) نفسه ، ص 53 .
(3) نفسه ، ص 54 .
(4) الفتح: من الآية 10.
(5) الرهبنة اللادينية كانت للارتزاق ، فالصلاة عند البيزنطيين لم تكن مقبولة ، إذا لم تمر عبر كاهن ، وعند المسيحيين بالإمكان أن يقيم المؤمن قداسا بدون قس الكنيسة . انظر خالد بن يونس ، التصوف قلب الإسلام ، دار الجيل ، 2005 ، ص 59 .

خبر هؤلاء الصحابة إلى الرسـول ﷺ دعاهم ، وأعلـن أن مثـل هـذه العـزائم لا تتطـابق وروح الإسلام وتبين لهم أنه يتمتع بكل ما تركوه ، ولما أراد هؤلاء الصحابة أن يـضيقوا عليه وقالوا له : « لسنا مثلك يا رسول الله لأن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك » فرد عليهم الرسول بقوله : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

وقال أبو هريرة : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاته وصيامه ولكن بسر وقـر في صدره » وهذا يعني النية الصادقة والعمل الخالص لله في العبادة وفي المعاملات[1] « إن الله لا ينظـر إلى صـوركم ولا إلى أعمـالكم ولكـن ينظـر إلى قلـوبكم » وينقـل لنـا أن إبراهيم بن الأدهم أحد أوائل المتصوفة كان يقول : « لم ينل مـا عنـدنا بـالحج والجهـاد وإنما ينال ما عندنا من كان يعقل ما يدخل حلقـه » [2] يعـني أن يكـون رغيـف الجـزء الذي يأكله حلالاً ، وهذا يعني العفة وعدم أكل الحرام .

لقد كان الرسول ﷺ ينهى من كانت مواقفـه متـصلبة ، ويريـد الغلـو والتنطـع في الدين ، أو يريد التفرغ الكامل للعبادة ، ويفضل الزهد والاعتكاف على ضروب الجهـاد والعمل كل أيام عمره ، كـان الرسـول يقـول : « إنمـا بُعـث بالحنيفيـة الـسمحة » وكـان يقول : « فإن لجسمك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه » ، وكان يقول ﷺ : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخـرة ولا الآخـرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » [3] ، وكان الرسول يقول : « اعمـل لـدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تمـوت غـداً » فـالقرآن الكـريم والـسنة النبويـة الشريعة يحثان الإنسان على أن يحيا حياته الإنسانية الطبيعية السعيدة بإتزان واعتدال [4] .

هذا ولعل السائل يسأل عن ظهور التصوف والزهد في التاريخ الإسـلامي ، وعـن بداية ظهوره ، سواء كان هذا الظهور في عهد الرسول ﷺ أو في عهد الـصحابة ، أو عهـد العصور الإسلامية اللاحقة لعصر الخلفـاء ؟ ويـسأل لمـاذا اتـسمت حيـاة المـسلمين في عصر النبوة بكبح جماح النفس، وبالبساطة التي لا تعرف النعومة أو الليونة ؟ واتـسمت

(1) نفسه ، ص 52 ، 54 .

(2) نفسه .

(3) نفسه .

(4) نفسه . ويقول خالد بن يونس : في كتابه " التصوف قلب الإسلام " لكي نكون عابدين وذاكرين وباحثين عن الله فـلا نحتاج إلى الاعتزال عن العالم . انظر خالد بن يونس ، التصوف قلب الإسلام ، دار الجيل ، ص 68.

بما يُعرف بإنكار الذات وترك الاشتغال بأمور الدنيا والتفرغ الكامل للحياة الآخرة ؟ ، فهل يا ترى تتساوى اعتقادات الرسول وهو يعيش حياته المتقشفة مع اعتقادات الزهاد والمتصوفة ؟ ، أو ما هو المقصود بالقول : « إن الزهاد والمتصوفة يقتدون بالرسول الأعظم وهم يحبون حياتهم التقشفية ؟ الإجابة تأخذ شقين : أحدهما يتعلق بحب الإنسان المسلم لأن يكون قريباً من الله بعبادة زائدة عن غيره ، والشق الآخر يتعلق بشعور الإنسان المسلم بدوره في المجتمع وبمسئوليته في صنع الحياة ودفعها إلى الأمام بما يرضي الله ، بالنسبة للشق الأول الذي يتعلق بالعقيدة ، فالصوفي يتأكد في كل ممارسة تعبدية عدم وجود الوساطة بين الله والعبد ، لأن الرسالة المحمدية الشريفة ، الإسلام ، حررت الإنسان من الوثنية ومنحته معنى الوحدانية ، فأصبح الله هو الواحد الأحد ، ولا إله غيره ، وانتهت آلهة العرب إلى غير رجعة » [1] .

أما بالنسبة للإجابة الشق الثاني من السؤال الذي يتعلق بدور الإنسان في الحياة، فتتمثل في أن ممارسة السواد الأعظم من النساك للزهد والتصوف ، كانت تنطلق من الرغبة الأكيدة في جعل المجتمع الإسلامي ، يشعر بالطمأنينة ويسوده العدل والمؤاخاة والتآلف ، وهذه كلها لا تتأتى إلاّ بإذابة الفوارق ونكران الذات « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، فالرسول ﷺ وأصحابه كانوا يعيشون حياتهم باعتدال كما سلف القول ، وإن مستوى الحياة الذي كان الرسول ﷺ والرعيل الأول من أصحابه يعيشونه ، كان هو المستوى المعيشي لكل الناس ، أي أنه كان بإمكان كل مسلم أن يعيش هذا المستوى من الحياة ، وبالطبع كان الرسول وعدد غير قليل من أصحابه بإمكانهم أن يعيشوا أكثر رفاهية ونعومة بفعل مكانتهم الاجتماعية في قريش ، وبفعل أوضاعهم الاقتصادية الممتازة ، وكما هو معروف أن بعضاً من الصحابة تركوا المال والجاه ودخلوا الإسلام ، رغبة أكيدة منهم في ذلك لا إكراها من أحد ، أو إرغاماً بل أنهم حرموا أنفسهم من المال ومن الشهوات ، من أجل العقيدة لا عوزاً ولا فاقة ، فعلوا ذلك من أجل أنفسهم ، ومن أجل بقية المسلمين الذين لا تتوفر لهم الحاجة [2] .

أيضاً كان بعض من الصحابة يعيش حياة الترف ، عندما تأكد له أن هذا النوع من الحياة أصبح متاحاً ، على الأقل ، لعدد غير قليل من المسلمين بفعل اتساع رفعة الدولة

(1) نفسه .

(2) اللواء: حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات ، مكتبة مدبولي ، 2004 ، ص 181 .

العربية الإسلامية ، ودخول مناطق غنية في الإسلام ، فعّم الرخاء وزادت الثروة ، ولعل الخليفة عثمان بن عفان مثلاً على ذلك ، فعثمان بن عفان ﷺ ترك المال والجاه ودخل الإسلام[1] ، وبشر به وعمل مشاريع وأعمالاً معروفة لصالح المسلمين ولصالح الدعوة الشريفة ، وعاش عثمان [2] حياة الفاقة والعوز ، زمن الفاقة والعوز عند كل المسلمين ، ولكنه أي عثمان قتل بتهم عديدة ، منها اللبس للفاخر من الثياب والظهور بمظهر البهرجة والغنى ، ولم يكن لجهوده في الدعوة عند قتله أي اعتبار .

مات عثمان بن عفان مقتولاً بعد أن قال فيه الرسول : « ما ضرّ عثمان ما صنع بعد اليوم اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه » ، فهل يستطيع المتصوفة الذين ينكرون على الناس التنعم أن يدعوا قربهم من الله أكثر من عثمان بن عفان ؟ .

إذاً يستطيع الباحث أن يقول إن التصوف الذي عرفته البلاد الإسلامية ، بدءاً من أواخر القرن الثالث الهجري ، تصوف سلبي إلى حد كبير عند بعض الزهاد ، وليس من الإسلام في شيء ، بل هو بدعة من البدع وجريمة نكراء ، ترتكب في حق الإسلام والمسلمين ، تجعل من بعض أصحاب العقول البسيطة من المسلمين ، وبعضاً من أصحاب الإرادة الهشة الضعيفة ، يغادرون العقيدة إلى الاتحاد ، كما أن ممارسات هؤلاء المتصوفة تمهد السبيل لأعداء العقيدة ، فيتهمون الإسلام بالتخلف والرجعية والعقم، وأصحابه بالكسل والتواكل والإرهاب .

فالتصوف السلبي رهبنة ما في ذلك شك ، ولا رهبنة في الإسلام ، إذاً لا وجود شرعياً للتصوف السلبي ، والرهبان في الديانة المسيحية هم وحدهم الذين تخلوا عن كل مظهر من مظاهر الترفه ، وتركوا كل سبيل للحياة الاجتماعية الإنسانية ، ولم يعبأوا بأي عائق يحول دون أن يكونوا كذلك ، وكل ذلك كان يحدث ، ويحدث اليوم منهم ، من أجل تأكيد الذات ، ومن أجل الحصول على مغنم أو منفعة ، وحجتهم في ذلك أن المسيح عليه السلام قدّم حياته من أجل الدين ، فكيف لا يضحون هم بالمال وبنعيم الحياة من أجل الدين ؟ .

---

(1) كان العرب يعبدون ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة وكان لكل قبيلة إله وعندما جاء الإسلام ألغى كل ذلك ، فلا وساطة بين الله والعبد .

(2) حفر عثمان بن عفان بل اشترى بئر رومة وجعلها للسبيل ليرتوي منها الناس ، وجهّز عثمان من ماله الخاص جيش العسرة بسبعمائة أوقية ، وعثمان بن عفان يُعرف بذي النورين لزواجه مرتين من بنات الرسول ﷺ .

هذه هي أفكار الرهبان ، سواء كانوا رهبان صوامع أو رهبان أديرة ، أو رهبان كنائس أو رهبان ديانات أخرى غير المسيحية .

الرهبنة ليست من تعاليم المسيح عليه السلام

ولعل من الجدير بالملاحظة القول إن إصلاحات حدثت في نظام الرهبنة والتصوف المسيحي ، بدءاً من القرن السادس على وجه التقريب بوضوح كامل ، وذلك عندما أخذت إصلاحات القديس بازل وإصلاحات القديس بتدكت ، تأخذ طريقها إلى المؤسسات التعبدية ، وأدخلت عليها نظماً وأفكاراً جديدة ، يمكن أن توصف بالتحررية [1] ، كانت سبباً في رواج حركة فكرية إصلاحية دينية ، وسبباً في ظهور ما يعرف بالجمعيات المسيحية التي يمكننا تشبيهها بالطرق الصوفية عند المسلمين، وهذا ما سنتاوله لاحقاً ، ولذلك يمكننا القول إن التصوف والترهبن عند المسيحيين قبل القرن الرابع الميلادي ، كان لا يختلف كثيراً عن اعتقادات وأساليب العرب، في العصر الجاهلي ، وبالتالي نستطيع الجزم أن الرهبنة المسيحية والزهد والتصوف الإسلامي عند العرب ما هي إلا طقوس تعبدية ، يمارسها الإنسان في كل العالم في تلك الأزمنة، ولذلك الترهبن لم يكن وليد تعاليم المسيح عليه السلام عندما كان يحث أتباعه على الفضيلة، وعلى التخلي عن أمور الدنيا ، وبيع ما يملكون فقول المسيح عليه السلام وإرشاداته لم تكن ـ فيما أرى ـ نبذاً لحياة الناس المميزة عن حياة الحيوان .

وإلى هنا نخلص إلى القول : إذا كان الراهب أو الزاهد أو المتصوف يعيش حياته التقشفية حياة الفاقة والانعزال عن الدنيا ، تيمنا بالرسول ﷺ أو اتباعاً لتعاليم المسيح عليه السلام ، ويأتي الراهب أو المتصوف بآراء خاصة في تفسير بعض الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ ، إذا كان الأمر كذلك ، فالتصوف الإسلامي والترهبن المسيحي ليسا من العقيدة في شيء [2] ، فالصوفي الأول ، كما تقول بعض المصادر ، أي هاشم الكوفي المتوفى سنة 162هـ ، قضى معظم سنين حياته منتسكاً ، وكان يقتدي بالرسول الأعظم في بساطة حياته ، ويتأثر كثيراً بالقرآن الكريم ، فيما يخص المعصية والحساب

(1) دي لاسي أوليري: الفكر الإسلامي ، ص 156 .

(2) رجب العدوي: العصر النبوي ، وانظر كذلك كتاب فيليب حتي، عصر النبوة والخلافة الراشدة ، تأليف فاضل محمد الكبيسي ، دار الفرقان ، ط1 ، 2005 ، لترى الافتراءات التي كتبها فيليب حتي على الرسول ، وعلى القرآن .

وقصر الحياة ، ولم نقرأ عنه أنه أتى بكلام في الإلهيات مخالف للشريعة ، لا هو ولا من تبعه من زهاد عصره في القرن الثاني الهجري ، كإبراهيم بن أدهم وداود الطائي المتوفى **165**هـ والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي ، ولا من كان على شاكلتهم من الرجال والنساء ، وحتى كلام معروف الكرخي ، الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق، الذي تحفل به الكتب ، لم نجد فيه تأويلاً يمس العقيدة ، كالتأويلات التي أتى بها متصوفة العصور الوسطى بعد القرن الرابع الهجري .

الفرق بين التصوف السلبي والتصوف الإيجابي

إذاً التصوف الذي يأتي بتأويلات لم يكن تصوفاً إيجابياً ، بل هو وجه خادع للتنسك والزهد[1] ، الذي يعني التعبد الزائد من أجل ضمان حياة الآخرة بسعادة وأمان، وهو الذي يرتكز ـ أي التصوف السلبي ـ على تعذيب الجسد ، الذي يمثل الناحية المادية في الإنسان ، أما التصوف الإيجابي والتنسك والتعبد فكان من مظاهر التفكير عند العقلاء في الجزيرة العربية وما حولها ، قبل حياة الرسول وأثناء حياته وبعد وفاته[2] ، ولعل تعبد الرسول ﷺ بغار حراء مثل دال على ذلك ، فالرسول كما هو معروف ، كان ينفر من حياة الهرج والمرج السائدة في مكة ، ويتوجه بعقله ولسانه وجسده إلى الكون يناجي ربه ، ويتطلع إلى معرفة الخالق ، وإلى معرفة سر وجود الكون ، أما الرهبان عند المسيحيين فكانوا يتعبدون ويهجرون الحياة ، فيتطلعون إلى الحصول على رضا الرب ، ويبتعدون عن حياة التشرذم والتشتت التي تصيب أتباع المسيحية من جراء الانشطار المذهبي ، بل يعيب هؤلاء الرهبان على المسيحية العلمانية سلوكها .

هذا وفي سياق المقارنة بين التصوف الإسلامي الإيجابي ، وبين الرهبة المسيحية، نجد أن الرسول الأعظم كان يتعبد في غار حراء ، بينما الرهبان كانوا يتخذون صوامع للتعبد ، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى أديرة ، ثم تطور نظام الترهبن عندما اكتشف العقلاء المسيحيين عدم توافق ما يجري بالصوامع وبالأديرة مع تعاليم المسيح عليه السلام.

---

(1) سعد رستم: الفرق والمذاهب المسيحية ، ص 105 إلى 108 .

(2) يقول : أحمد علي زهرة في كتابه الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة : إن أول من أطلقت عليه كلمة صوفي هو الحارث المحاسبي المتوفى 242هـ حيث كان يدعوه أحمد بن حنبيل بـ "ياصوفي" ، وإن الصوفية أطلقت على مذهب من مذاهب الشيعة في الكوفة آخر أئمته عبدك الصوفي في سنة 199هـ انظر أحمد علي زهرة ، الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، ص9 .

لم يكن غار حراء الذي كان الرسول يتعبد فيه بديلاً ، ولم يكن المسجد بعد الرسول ﷺ في أي يوم من الأيام بديلاً لدور السكن أو دور العمل ، كما كانت الصوامع والأديرة عند المسيحيين . محمد ﷺ كان يخلو بنفسه لمدة ثلاثين يوماً ، ولكنه كان يعود إلى أهله وإلى بيته ويمارس حياته الاجتماعية بكاملها ، كما أنه كان يلتقي بزواره وهو يتعبد [1] ، ولم نقرأ أن الرسول ﷺ كان اتكالياً أو متسولاً أو شحاذاً أو أن بجسمه عفونة ولا متسخ الثياب ، لم نعرف عنه أي مظهر من مظاهر السخرية ، لم نلمس لأي نوع من هذه الحياة التقشفية عند المتصوفة المسيحيين اللاحقين طريقاً إلى حياة الرسول قبل البعثة وبعدها ، بل نجد الرسول ﷺ يحيا حياته المعتدلة ، وسطية لا تفريط ولا إفراط ، لم يترك لنفسه العنان ، كبقية الجشعة المتطرفين من أفراد مجتمعه ، لكي يعيش حياة البذخ والتسلط والاحتكار ، بل كانت حياته وأصحابه تنطلق من القناعة ، ومن حب البساطة في العيش ، أكثر مما تنطلق من الرغبة في قتل الجسد لإحياء الروح ، والانقطاع عن الخلق للقاء الخالق ، كما كان يعتقد الرهبان المسيحيون ، بمعنى لم تكن ظاهرة التصوف في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة من بعده ، تمثل سلوكاً معيناً مميزاً عن جماعة المسلمين [2] .

المقصود بالتصوف الإسلامي وأغراضه

أما بالنسبة للتصوف الإسلامي بعد القرن الثالث الهجري ، وهو ما نعبر عنه في هذا البحث بالتصوف السلبي ، الذي أصبح فيه بعض المتصوفة يأتون بكلام في الإلهيات لم يُعرف له ظهور زمن الرسول ﷺ ، ويتزامن ظهور الاجتهادات مع انشطار المسلمين على أنفسهم ، زمن الفتنة الكبرى التي أودت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ ، وما ترتب على مقتله من أحداث وحروب بين علي بن أبي طالب ، والمطالبين بدم عثمان ، ثم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، ثم بين معاوية وابني

(1) دي لاسي أوليري ، الفكر الإسلامي ، ص 158 .

(2) التصوف الإيجابي هو جوهر الإسلام ، وكان الكل متصوفة رغم عدم وجود اسم التصوف زمن الرسول ، وأصبح الصوفي هو المسلم المتعطش لمعرفة الذات الإلهية وهذا المسلك لا يتعارض ومسلك الرسول الأعظم ولا مسلك خلفائه ، ونزل في حق هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ سورة الكهف، الآية 38.

علي الحسن ثم الحسين [1] .

في هذه الظروف الحرجة من تاريخ المسلمين ، ظهرت أراجيف وأقاويل تأويلية في الأفق خدمة لهذه الجماعة أو تلك ، وتدعي بأنها تستند على تعاليم الإسلام ، وأخذ هذا الطرف يعمل ضد الطرف الآخر ، ويروج لأفكاره ، وتنفس أصحاب المنافع الخاصة في تشتيت شمل المسلمين الصعداء ، وبرزوا إلى الساحة الفكرية والسياسية كالسبئية [2] أتباع عبد الله بن سبأ ، وبعض من الشيعة والخوارج وغيرهم ، وبذلك أصبحت حياة التقشف والعوز ـ التصوف ـ نوعاً من التدريب العملي لمعتقدات فكرية خاصة بظروف هذه الفرق السياسية أو تلك ، وليس على درب الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه الأوائل ، فأصبح التصوف نوعاً من الدروشة والهلوسة متأثراً إلى حد كبير بثقافات دخيلة على الإسلام ، بفعل الفتوحات الإسلامية لعدد كبير من بلدان العالم، خصوصاً في عهد العثمانيين ، فعند فتح بغداد أصبحت عاصمة للحوار الفكري وراجت عملية النقل والترجمة من وإلى العربية ، وأصبح مألوفاً معاشرة الإنسان المسلم لغير المسلم الأجنبي ، بل مألوفاً حواره والأخذ منه في بعض الأحيان ، ولعل هذا ما عناه الذين قالوا : إن حركة الترجمة من الإغريق إلى العربية في العصر العباس ، كانت آثارها [3] بليغة في الفكر الإسلامي ، وإن آثارها أصحبت ملحوظة عند بعض المتكلمين في العقيدة [4] .

ولعل الذين قالوا بأثر الثقافة الأجنبية في رواج الفكر الإلحادي في صفوف المسلمين ، كانوا يعنون أولئك الذين دخلوا الإسلام ، وهمّ زرادشتيون أو مانويون أو بوذيون أو هندوس ، وبقوا على عقائدهم نكاية بالمسلمين وفكرهم ، وبالفعل كونوا خلخلة واضطراباً في الفكر الإسلامي عند غير المتعمقين في العقيدة الإسلامية ، وهؤلاء

---

(1) هناك فرق من الناحية التاريخية بين الزهاد والمتصوفة ، فالمتصوفة لم يكونوا مقلدين لمن قبلهم ولكنهم رفضوا الترف الذي يتعلق بالجسد من أجل تسامي الروح ، بينما الزهد هو العلاقة المتميزة للمؤمن الأول وأن المتصوفة يتمسكون بحياة التقشف ويرفضون حياة الترف على أنها بدعة وأن النساك كانوا قليليين واعتبر الزهد مرحلة تمهيدية في حياة التصوف ، دي لاسي أوليري ، الفكر الإسلامي ، ص 157 ، 165 .

(2) د . رجب محمد عبد الحليم ، عصر النبوة والخلافة الراشدة .

(3) د . محمد أمين صالح: العرب والإسلام من البعثة إلى نهاية عصر بني أمية ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، 1984م .

(4) اللواء حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية ، ص 181 .

الغرباء هم الذين سموا بالزنادقة ، وأصبح مفهوم الزنديق هو الذي يُظهر الإسلام ويبطن الكفر والإلحاد ، ويظهر ذلك في ما يأتي به من أقاويل ، وما يدعيه من ادعاءات ، تحدث بلبلة في ذهن المسلم ، وأصبح الزنادقة يمثلون مظهراً تعبدياً أشبه ما يكون بالمتصوفة ، واختلطت آراؤهم إلى حد كبير بآراء بعض المتصوفة ، وأصبح مألوفاً الجهر بأي قول في العقيدة ، وإن كان لا يتوافق ولا يتطابق مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ولعل أهم هذه الأفكار الغريبة تلك التي تنادي بالتوحيد ، اتحاد الله مع النفس ، وأصبحت أفكار بعض المتصوفة تنشط في هذا الاتجاه ، أو بمعنى آخر أصبح المتصوف يمارس طقوسه التعبدية مؤملاً الوصول إلى أن تتحد نفسه مع الله ، ويمكن الباحث أن يؤكد أن أفكار الحسن بن الحلاج وأبي زيد البسطامي وأبي القاسم الجنيد وعمر الفارض ومحيي الدين بن عربي والسهروردي ، تمثل الأفكار التصوفية التوحيدية، فالحلاج الحسن بن المنصور كان يقول بتناسخ الأرواح والخلق ، وهذه هي أفكار غلاة الشيعة ، وقُتِل الحلاج بتهمة الإلحاد ، وذلك عندما كان يقول: أنا الله [1] ، ولكن الحلاج رغم إلحاده الذي قال فيه إنه هو الله ، نجد بعضاً من المتصوفة يرون فيه أحد أعمدة التصوف ، ويرونه شهيداً لأنه قُتل بسبب كشفه عن السر الأعظم ، الاتحاد بين النفس والله، وأخذوا يدافعون على رأيه في مسائل الحلول ، حلول الله في الجسم الإنساني ، فالحلاج كان يقول: الإنسان إلهي بجوهره ، لأن الله خلقه على صورته ، ولهذا يأمر الله الملائكة في القرآن الكريم أن يسجدوا له ، وكان الحلاج يقول: إن الألوهية تحل في النفس الإنسانية ، كما تحل النفس عند الميلاد في الجسم ، ويبدو أن آراء الحلاج كانت تمثل المناخ الفكري السائد في عصره ، حيث نجد عدداً غير قليل من المتصوفة الآخرين يرون رأيه ، ويعتقدون اعتقاده ، ويعملون على نشر أفكاره والدفاع عنها .

مظاهر التعبد في التصوف السلبي

إذا كانت أفكار الحلاج تمثل ذروة التصوف السلبي ، فإن آخرين من المتصوفة مثلت أفكارهم ذلك ، كأبي زيد البسطامي الذي يعد هو الآخر من أهمّ متصوفة القرن الثالث الهجري ، بدأ حياته زاهداً متقشفاً واشتهر بشطحاته التي جعلت الناس يعدونه كافراً ، عندما قال : سبحاني ما أعظم شأني. وعندما قال : تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد ، لوائي من نور ربك الغامر. وعندما قال : تالله إن لوائي

(1) ابن جرير الطبري ، تاريخه .

أعظم من لواء محمد ، لأنه من نور تحفه الجن والإنس كلهم من النبيين. وعندما قال : لئن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة. وقوله : طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك . (1)

وكأبي القاسم الجنيد ، فلقد كان أبو القاسم الجنيد من أشهر متصوفة بغداد في القرن الثالث الهجري ، حيث إنه كان أستاذاً للحسين بن المنصور الحلاج (2) ، ولقب بسيد الطائفة وشيخ المشائخ ، فينقل عنه أنه قال : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحبات . وقيل له: من أين استقيت علمك ؟ فأجاب : من جلوس في يدي الله بثلاثين سنة تحت درجة داري هذه. ويرى الجنيد أن أرواح البشر آمنت بالله وأقرت بتوحيده ، وأن هذا التوحيد هو التوحيد الخالص ، وكان يرى أن أرواح البشر أزليه قديمة قبل هبوطها إلى عالم الأجساد ، وأن وجود الله مرده إلى ما أراده الله ، ويرىد الله أن يقهر هذا الوجود الإنساني بالفيض الإلهي بحيث يفنى الوجود الإنساني الخالص ويبقى الوجود الإلهي (3) .

أما بالنسبة لعمر بن الفارض ، وهو أبو حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض ، فكان متقشفاً تقشفاً شديداً يعمل على قهر نفسه بالصلاة والصيام ، ولقد كان شاعراً متمكناً ، وكان يدعو إلى الفناء بالموت لأن الحب الصادق يحتاج إلى أن يضحي المحبوب بحياته في سبيل حبه ، حبه الذي لا غاية له سوى الحب ، ويرى أن الاندماج بين المحبوب والحبيب تحصل من فرط الوجد ، حتى أن المشاهد لا يستطيع أن يفرق بينهما ، حتى أنه في الصلاة حيث يقف الفارض إماماً يصلي والناس وراءه، فيحدث الاندماج النفسي الذي لا يحصل إلا بالرياضة التهذيبية .

أما بالنسبة لمحيي الدين بن عربي ، فهو من أشهر متصوفي العرب المسلمين جميعاً ، وأكثرهم إنتاجاً ، وهو محمد وكنيته أبو بكر ولقبه محيي الدين ويُعرف بالحاتمي الطائي ، نسبة إلى حاتم الطائي ، وأطلق عليه اسم الشيخ الكبير ، دعا ابن عربي إلى وحدة الأديان ، لأنه يعتبر الحب هو الدين ، فالدين المحبة ولا دين

(1) د . رجب عبد الحليم ، عصر النبوة والخلافة الراشدة ، دار النهضة .

(2) أصبحت بغداد عاصمة لظاهرة التصوف حيث كانت حلقات الدروس والتناظر حول أحكام الشرع الإسلامي ومسائل الفقه والتوحيد تملأ خلواتها ، انظر د . عبد الواحد ذنون طه ، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والشرق ، دار الإعداد الإسلامي ، طبعة أولى ، 2004 ، ص 13 ، 126 .

(3) دي لاسي أوليري : الفكر الإسلامي ، ص 165 .

بدون محبة ، وينطلق ابن عربي من المحبة ليبشر بدين عالمي واحد على أساس الحب، ولا يرى ابن العربي فرقا بين الحبيب والمحبوب ، وابن عربي لا يرى جواز القتل في أي حال فقال : واعلم أن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله . وبنى قوله على قصة بناء المسجد في بيت المقدس ، وذلك عندما كان داود يبني ويهدم المسجد مراراً ، فشكا داود ذلك إلى الله ، فأوحي الله له أن بيتي لا يقوم على يدي من سفك الدماء فقال داود « يا رب ألم يكن ذلك في سبيلك ؟ قال : بلى ، ولكن أليس عبادي هؤلاء» .

ولقد كان ابن عربي حريصا على مجاراة الوضع العام ، لأن الصوفية في عهده كانت متهمة بالخروج عن سيرة الدين وهتك حرماته ، والقول والتجرؤ على الله ، فقال ابن عربي : كتبت ما كتبت وأنا أقر بحمد الله تعالى أني لم أذكر أمراً غير مشروع وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء ، بل منهما استمدت وبهما أنير طريقي ، وقال أيضاً : ما عندنا بحمد الله تقليد لأحد ، إنما هو فهم في القرآن أعطيته ومدد عن رسول اختصصت به وفيض من ربي أكرمني . ويقول: بالله الواحد لا تأتّيَ له في ألوهيته ، منزه عن الصحابة والولد ، مالك لا شريك له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجود ، يوجد كل موجود ، وكل موجود مفتقر لسواه مفتقر إليه تعالى في وجوده ، فالعالم كله موجود به ، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه ، لا افتتاح لوجوده ولا انتهاء لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه . وهذا ، كما ترى ، تصوف إيجابي .

أما بالنسبة للمتصوف السهروردي ، فهو مؤسس المذهب الإشراقي ولقب السهروردي بالشيخ المقتول ، تمييزاً له عن غيره ممن تسموا باسمه ، تآمر عليه الشيوخ والفقهاء ووشوا به إلى صلاح الدين الأيوبي فقتله [1] ، تناول السهروردي مشكلة الإمامة تناولاً فلفسياً ، مما اغضب عليه فقهاء السنة ، خصوصاً عندما قال : أبناء علي هم صورة للتجلي الإلهي ، فاتهموه بأنه يريد إثارة الآراء الباطنية ، ولقد تزعم ابن تيمية حملة ضد الفلاسفة والمتصوفة .

(1) لقد قال ابن سبأ وبعض من أتباعه إن علياً الله ، فأهدر علي دمه وأوصى بقطع رقابهم وأحرق بعضهم بالنار ، أحمد علي زهرة ، الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، ص 54 ، وانظر إلى ، محمد علي المعلم ، عبد الله بن سبأ ، الحقيقة المجهولة ، دار الهادي ، ط1 ، 1999 .

وهكذا راجت أفكار المتصوفة من خلال مدارس ومذاهب ، صنعت للمريد وفرضت نوعاً من الطقوس وعدداً من الترهات [1] ، وشاع نوع من الغناء والموسيقى والأهازيج مكيفة حسب رغبة المتصوف أو رغبة الشيخ ، ورصد المؤرخون قاسماً مشتركاً للمتصوفة في تناول أمور العبادة ، سموه بالذوق بمعنى أن الأفكار الصوفية أصبحت تصاغ بذوق المتصوف وميوله ، وإن كانت هذه الأفكار وهذا الذوق يتعارض والقرآن ، وبذلك عمّ الجهل بالدين بين صفوف المتصوفة ، وانتشرت البدع والخرافات في صفوف المسلمين من مرحلة إلى أخرى حتى الآن ، وعند تتبع حركة التصوف في المجتمع الإسلامي نجد المتصوفة لا ينطوون تحت فرقة واحدة، وليسوا متمسكين بميول من نوع معين واحد في كل المجتمع الإسلامي ، ونظير ذلك في سلوك التعبد عندهم الذي هو ترجمة عملية لما يدور في نفوسهم ، وهذا الافتراق في صفوف المتصوفة الإسلاميين ، سواء بسواء بالتشرذم والتشتت للتصوف المسيحي ، حيث نجد أن التصوف المسيحي ازدهر في فرق المذهب الاحتجاجي البروتستانتي ، وفي المذهب الكاثوليكي أيضاً ، والفرق المذهبية المسيحية كلها كانت مختلفة في تفسيراتها لطبيعة المسيح ، وعند أخذها بنصائحه ، وهذا بالطبع ناجم عن تعدد مصادر معارفها وناجم عن تعدد الأناجيل ، وطبعات الإنجيل المختلفة ، وفي كل الأحوال أخذ على المتصوفة الأمور الآتية :

1. ترك الصلوات الخمس المفروضة في أوقات معينة وميلهم إلى الصلوات الصامتة تقدما في المعرفة الروحية العميقة .
2. إدخال الأذكار وبعض الرياضيات الدينية ونوع من الألعاب التي ليست في الإسلام في بادئ عهده .
3. اعتمدت على التوكل وتركت العمل والتطيب وعاشوا على الصدقات [2] .
4. بدت في أفكار المتصوفة ظاهرة الاستغناء عن القرآن والسنة والتصاق التصوف ببعض الغلاة [3] .

مظاهر التعبد في التصوف ونشأة الطرق الصوفية

كما سلفت الإشارة أن التصوف الإسلامي السلبي يغلب عليه التشرذم ، وعدم

(1) أحمد علي زهرة: الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، ص 63 ، 76 .
(2) نفسه ، ص 76 ، 78 .
(3) نفسه ، ص 100 ، 119 .

التوحد ، ولكن يبدو لبعض البحاث أنه منظم على هيئة واحدة ، ينطلق من رؤية واحدة، ولعل هذا الحكم ينطلق من الطقوس التي تتخذ عند بدء المتصوف ـ المريد ـ لحياته حياة الصوفية ، حيث يضع كل متصوف جديد نفسه عند إرشاد قائد روحي ذي تجربة، يعمل معلماً له يعرف بالشيخ المرشد ، وكان المريد المبتدئ يلتزم بالطاعة العمياء لهذا المرشد ، وهذا النمط التعبدي يتوافق ورغبة المريد المنخرط في التصوف في عصورنا الحديثة، ولكن كيف هو العمل التعبدي داخل الطرق الصوفية ؟ وما هي مراحل التدرج الوظيفي في الطرق الصوفية ؟ .

يختار جماعة من المريدين شيخا لهم ، يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب لغاية الوصول إلى معرفة الله [1] ، ولذلك يتوجب على المريد اتباع الشيخ بطاعة عمياء ، ويحمله على اعتقاد أن الشيخ وصل إلى مرحلة انكشف له الحجاب ، وأنه عرف الأسرار وتجلت له الأقدار ، فعلى المريد المواضبة على ما يردده الشيخ من أدعية وأذكار ، وأن يكون في يديه كالميت يقلبه كيف يشاء ، وأصبح الشيخ الولي الذي يتولى أمرهم إلى آخر المطاف ، والولي عند الصوفية هو الواصل إلى مرتبة العرفان ، ويعتقد الصوفية أن العارف هو الذي تنكشف له الحجب ، ويشهد على الله ما لا يشهده سواه ، وتظهر على يده الكرامات التي عندهم أمر خارق للعادة ، تتكرر كبرهان لهذا الولي الصوفي المزعوم.

والطرق الصوفية لا تختلف في نشأتها والمبادئ الأصلية التي تقوم عليها ، وإنما الاختلاف يظهر في الأذكار والأوراد المطلوبة للمريد عند كل منها ، وتبين لنا الكتب المهتمة بهذا الموضوع أن المريد يطلب من الشيخ قبوله للسير في الطريق ، فيتلقى الشيخ ذلك بفرح بالغ ، ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبرئ من حوله وقوته ، وإخلاص النية في مقصده ، وأن يلتزم بالأذكار والأوامر المشروعة ، فضلاً عن القيام بما يوحيه الدين من اتباع الأوامر والنواهي للشيخ ، ويبدأ المريد ويسمى في البداية: السالك ، يجعل همه العبادة والزهد في الدنيا ، حتى يصل إلى مرتبه العبودية ، ويستمر السالك في تعبده إلى أن يصل إلى مرحلة التعبد في الخلوة والعزلة ، ويأخذ في التقليل من البذخ والطعام والشراب والأكل والنوم ، حتى تستملكه فيما يرى الصوفية حالة علوية شريفة ، ينتقل بها إلى درجة أرفع ، تسمى مقام الوجد والهيام ، فتبدأ تتوارد عليه

(1) دي لاسي أوليري: الفكر الإسلامي ، ص 174 .

النفحات الربانية والبركات الإلهية تواردا متصلاً ، فتزداد معرفتـه بالـذات العليـا ، ويـصل السالك إلى مقام الحقيقة ، وفيها العبد لا يرى أمامه إلاّ الله ، ولا يجد في الوجود إلاّ الله سبحانه ، وتمحى آثار الموجودات من أمام عينيه إلاّ وجود إلله [1] .

أمـا فـرق الرهبـة المـسيحية فتظهـر للباحـث لأول وهلـة ، كأنهـا علـى مـذهب واحد منظم ، ولكنها في الحقيقة غير ذلك ، فهي نشأت بمبادرات فرديـة ، ثـم خـضعت للتنظيم الذي طرأ علـى نظـام الرهبنـة والديرى ـة ، كتنظيمـات القـديس بـازل والقـديس يندكت من بعـده ، وفي أوقـات لاحقـه تنظيمـات جماعـة ديركلـوني ، فالرهبـان كـانوا يعيشون حياة الإنفراد والعزلة الموحشة في حياة الترهـبن الأولى في الـصوامع والأديـرة، ولكن بفعل التنظيمات المشار إليها أصبح الراهب يعيش حياة أكثر اجتماعية ، ويـشارك في الإنتاج إلى جانب تعبده الانفرادي ، وسعيه المستمر للتقرب إلى الله [2] ، حتى يـصل إلى المرحلة النهائية التي يعبر عنها في نظام التصوف الإسلامي بمرحلة الولهان ، ولقـد أشرنا إلى ذلك ، ونؤكد هنا بأن ذلك كان يحدث عندما يجتمـع أفـراد الطـرق الـصوفية يبين الحين والآخر لممارسة طقوس تعبدية ، ويطلبون من المريـد الالتـزام بهـا ، وعنـد التزامه بها تضمن له الجماعة التدرج حتى آخر درجة ، وهى درجة الولهان .

بداية الفرق الصوفية

إذا كنا قد أشرنا إلى أن بدايـة الفكـر الـصوفي الـسلبي ، كانـت في القـرن الرابـع الهجـري ، فإننـا نؤكـد علـى بـدء وجـود الطـرق الـصوفية في شـكلها الحـالي التـام المعروف منذ القرن السادس الهجري ، حيث أصبح التاريخ يؤرخ لطرق صوفية معروفة كالطريقة الرفاعية والطريقة القادرية والطريقـة الـشاذلية وغيرهـا ، ونـشير باختـصار إلى أهمها ، وهي :

1. الطريقة الرفاعية

تنسب الرفاعية إلى مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بـن علـي الحـسن بـن أبـي العباس أحمد الرفاعي المتوفى 578هـ ، وهو من قرية يقال لهـا: أم عبيـدة قـرب دجلـة بالبلاد العراقية ، ولقد جمع هذا الشيخ في حياته عددا كبيرا من المريدين ، وشـكلهم في طريقة خاصة عام 576هـ ، وجعلهم يعيشون على شكل تجمـع ، تحـت إشـراف شـيخ

(1) نفسه ، ص 175 .

(2) اللواء حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية ، ص 182 ، 184 .

يطيعونه طاعة تامة ، وتتفرع الرفاعية إلى فرعين: الفرع العلواني ، والفرع الجباوي، ويعرف هؤلاء بالدوسة ، حيث تعود الشيخ أن يدوس أجساد أتباعه وهم منبطحون، وهذه الفرقة تعتبر أكثر الفرق غلواً وتطرفاً ، حيث يجرح أتباعها أنفسهم ، ويخمدون الخناجر في أجسادهم ، ويبتلعون الثعابين ويهرشون الشيش ، ولا يرددون اسم الله إلا لماما ، ويشتهرون بعمائمهم السوداء [1] .

2. الطريقة القادرية

تعرف هي الأخرى باسم مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى 561هـ وهي أكثر الفرق اعتدالاً ، حيث لا يوجد في صفوفها ما هو مخالف للذوق، بل إنهم يمتازون بكثرة ترديدهم لاسم الله ، ويكون ذلك على هيئة تسابيح يقومون بها [2] .

3. فرقة البدوية

تنسب هذه الفرقة إلى أبي الفداء أحمد المتوفى 675هـ ، وهي شبيهه بفرقة القادرية ، يجتمع أصحابها على ترديد ذكر اسم الله ، بصوت صريح ومسموع ، ولا يلجأون إلى أكل الزجاج أو النار أو ابتلاع الثعابين أو جرح الجسد [3] .

4. فرقة المولوية

وهي فرقة جلال الدين الرومي ، وهي المعروفة بفرقة الدروايش الرافضين .

5. فرقة النقشبندية

والنقشبندية تعتبر أسهل الفرق على المريد ، حيث يبدأ أصحابها بالجذب ثم بالسلوك ، أما بقية الطرق فتقدم السلوك على الجذب في الأغلب [4] .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الدراسة لا تتطرق بشكل مفصل للنشأة الفكرية للطرق الصوفية ولا تهدف إلى حصرها ، إلا بالقدر الذي يعتقده الباحث يظهر التطور

---

(1) نفسه ، ص 183 .

(2) نفسه ، ص 180 .

(3) نفسه ، ص 186 . وانظر إلى كتاب النقشبندي الخالدي ، الطرق الصوفية ، دار الانتشار العربي ، بيروت ، ط1 ، 1997م ، ص 86 ، 285 لترى خلوة المريد وخواصها وحقيقة الولاية وأوصاف الولي ، وغير ذلك من المواضيع التي تتعلق بالترتيب الوضعي للمتصوف بالفرق الإسلامية .

(4) يوحنا الآسيوي ، تاريخ الكنيسة ، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب ، مطابع المجلس الأعلى للآثار ، 2000 .

التاريخي للتصوف ، بغية مقارنته بالتطور التاريخي للرهبنة المسيحية ، ولكن لا بأس من الإشارة إلى الفكر الظاهري الذي يأتي ، فيما أرى ، في المرتبة ، من حيث التأثير الذي خلفه في التاريخ الإسلامي على فكر الصوفية .

الفكر الظاهري يرى أصحابه في الجدل والتخمين منكرا وبدعة ، ويحرمونه ويعيبون أهله ، وينهون عن مجالستهم ويحذرون من مقاربتهم أشد التحذير ويرون أنهم أهل ضلالة وتحريف للكلام ، القرآن والسنة [1] .

ولعل ذروه تطرفهم الفكري تتمثل في قولهم بالتجسيم والتشبيه بين الخالق والمخلوق ، ففتحوا بذلك الباب على مصراعيه أمام الأفكار المتطرفة ، في مناهجها الصوفية المنحرفة ، عن مناهج التصوف العقلاني المتأدب بأدب العقل والشرع ، وبالطبع نحن ننظر إلى هذه الاجتهادات الفكرية المختلفة عند تحديد من هو الله ، وعلاقته بالبشر ، على أنها اجتهادات فكرية ولدّتها ظروف معينة كان يعيشها أصحابها ، وأنها لا تتوافق وعقلية الإنسان المسلم في العصور الحديثة ، هذه العقلية التي استطاعت أن تبين عظمة الخالق ودونية المخلوق [2] ، وتتخذ من القرآن شريعة للمجتمع ، ومن سنة رسول الله ﷺ .

هذا ولعل التيار العقلي في الفكر الصوفي لا يقل تأثيراً في الفكر الإسلامي عن تأثير الفكر الظاهري ، ويتمثل التيار الفكري العقلي في الفكر الإسلامي في فكر الأشاعرة إلى حد كبير ، فأفكار الأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري ، كانت وسطاً بين موقف السلف وموقف من خالفهم ، فكفّره البعض ووقف إلى جانبه البعض الآخر، كفره الحنابلة ووقف معه أو إلى جانبه البعض الآخر كالباقلاني [3] والأسفراييني ، ومهما يكن من التخمينات في الفكر الإسلامي ، فإننا نجد بعض فلاسفة الإسلام دفعوا إلى حد كبير بالنزعة العقلية ، وإن لم تتوافق مع التصوف القرآني ، فكل ما أشار إليه العقل مقبول وكل ما لم يقبله العقل مرفوض .

كما أنهم كانوا يحرفون النصوص القرآنية التي لا تتوافق وما انتهوا إليه ، ويتفقون

---

(1) د . رمسيس عوض ، الهرطقة في الغرب ، دار الانتشار العربي ، بيروت ، ط1 ، 1997 .

(2) دي لاسي أوليري: الفكر العربي ، ص 167 . وانظر إلى اللواء حسن صادق ، الفرق الإسلامية ، ص 184 ، 186 .

(3) نفسه ، ص 180 .

على النصوص الأخرى التي تتوافق وفكرهم ، وهكذا صار الوضع الفكري في الإسلام الذي يمثل التصوف مظهرا من مظاهره ، وأصبح البحث في الفلسفة يكون على مقتضى العقول ، والبحث في الكلام يكون على قواعد الشرع وقانون الإسلام ، وشاع منهج الهجوم الفكري على كل مجتهد ، يخالف النصوص القرآنية ، ولقد برز الإمام أحمد بن حنبل في هذا الميدان ، حيث كان يرى عدم شرعية وعدم أهمية الاتكاء على شيخ ما عند دراسة الشريعة ، بل يجب أن يكون الأخذ من الكتاب والسنة فقط ، وهاجم الحارث المحاسبي الذي جمع بين النظر العقلي والتصوف ، وفي الحقيقة لم يكن أحمد بن حنبل وحده في الميدان ـ ميدان التصدي للفكر الصوفي ـ فالجنيد والبغدادي كانا كذلك حيث كانا يقولان : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، وإن الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول الأعظم ﷺ ، واتبع سنته ولزم طريقته ، كذلك الحال كان الإمام الغزالي كان يرى التصوف المرفوض هو ذاك الذي يسير وفقاً لآراء الحلولية والاتحادية ، بل يرى الإمام الغزالي فيه بدعة ، ولا يدخل في تقدير الإسلام ولا تدخل في تعاليمه [1] .

ابن خلدون هو الآخر ، كان يقول : ليس ثناء أحد على أفكار هؤلاء حجة ، ولو بلغ المثني ما عسى أن يبلغ من الفضل ، لأن الكِتاب والسنة أبلغ فضلاً وشهادة من كل أحد [2] ، ولكن من هؤلاء المتصوفة الذين يعنيهم ابن خلدون والغزالي وابن حنبل هؤلاء المتصوفة هم أبو يزيد البسطامي والحلاج والسهروردي ومحيي الدين بن عربي ورابعة العدوية والحارث المحاسبي وذو النون المصري وعمر بن الفارض ، ومن في فلكهم ، فكل هؤلاء كانوا يمثلون الفكر الصوفي المستند في فكره على عناصر أجنبية، فهؤلاء إضافة إلى ما نقلوه من خارج الفكر الإسلامي إليه ، فإنهم أظهروا ميولات فكرية، لا تعترف بحدود الدين وقيوده ، فأعلنوا تمردهم على أصوله وأركانه واستخفوا بالحرمات ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، فكانوا بذلك استمراراً لحركات الهدم في صدر الإسلام ، هكذا يراهم من يكرههم . هذه هي المجادلات الفكرية وحركات التصوف في الفكر الإسلامي ، فكيف كان الأمر على الجانب المسيحي ؟ .

عندما بزغ الإسلام كان المسيحيون مختلفين فيما بينهم ، ومتفرقين وذلك بفعل الانشطار المذهبي الذي طغى على تفكيرهم ، عند تفسيرهم لطبيعة المسيح عليه السلام هل هو

(1) نفسه ، ص 185 .

(2) شوقي أبو خليل ، علماء الأندلس، إبداعاتهم المتميزة واثرها في النهضة الأوروبية .

إنسان أم إله ؟ ، وتكاد مصادرنا أن تتفق على أن الأفكار التي كانت سائدة على سواها في القرون الثلاثة التالية لموت المسيح بألوهية المسيح ، هي تلك التي تقول بألوهية المسيح ، حيث إنها ترى أن المسيح عليه السلام ابن الله ، وبالتالي فهو الله ، أي أنه إله حقيقي من جنس وجوهر أبيه الله ، وأنه تأنّس وتجسّد ظاهراً في صورة عيسى عليه السلام الذي ولد بنفخة من الله في رحم السيدة مريم العذراء ـ عليها السلام ـ .

وتصور مصادرنا أن رواج هذا الفكر كان مبعثه طبيعة السيد المسيح عند المسيحيين ، وانبهارهم بمعجزاته الخارقه ، لاسيما إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص، بالإضافة إلى رحمته الفائقة بينهم ، كما أن الذي سّهل تغلب هذا التصور الفكري لطبيعة المسيح عليه السلام عند المسيحيين المناخ الفكري الذي كان سائداً في المنطقة زمن السيد المسيح عليه السلام ، وأعني به الثقافة اليونانية الهيلينستية التي كانت تؤمن بتجسد الآلهة ، وأن لبعض الألهة أبناء يظهرون على الأرض بشكل عظماء وفاتحين ومخلصين ، ولكن لا يعني هذا عدم وجود أفكار مسيحية تنفي إلوهية المسيح عليه السلام في تلك الأزمنة المشار إليها ، فلقد ظهر أساقفة وبطارقة وسياسيون لا يرون في المسيح إلها كاملا ، ولعل أشهرهم القديس آريوس الذي أعلن منذ تعيينه قسيساً للإسكندرية سنة 319م عقيدته ، التي تنص على ألوهية المسيح عليه السلام ، وتعتبره أيضاً مخلوقا ، أي أنه ابن الله ، والابن جزء من الأب وجزء من الثالوث ، وليس جزءا من المخلوقات .

وشيئاً فشيئاً مع الزمن انشطر الآريوسيون على أنفسهم إلى محافظين ومجددين، ومع الوقت راحت جهودهم الفكرية أدراج الرياح ، وظهر ما يعرف بالمكابين الذي نادوا بصراحة تامة بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين من حيث الأب والأم ، وأخذ هؤلاء يعملون كل ما هو كفيل بانتشار رؤاهم لطبيعة المسيح ، وبالطبع صاحب هذا الانشطار المذهبي للمسيحيين خلافات ومناظرات طالت عبادة الإيقونات ـ الصور ـ وتقديسها التي حرمِت في مجمع مسكوني عالمي لرجال الدين المسيحيين سنة **754**م ، دعا إليه الإمبراطور قسطنطين الخامس ، وجهر المجتمعون في هذا المجمع بعدم فائدة وشرعية ودينية أخذ الشفاعة من مريم العذراء ، فما كان من مؤيدي عبادة الإيقونات ، وعلى رأسهم الإمبراطورة البيزنيطية ايريني ، إلا أن عقدوا مجمعا دينيا مماثلا ، قرروا فيه عدم صواب قرارات مجمع الإمبراطور قسطنطين الخامس ، وأبيحت فيه عبادة الإيقونات ، وهكذا بدأ الصراع الفكري يتمثل ويتجسد في اجتماعات كنسية عديدة وقرارت إمبراطورية وبابوية ، حفل بها تاريخ الكنيسة وأوروبا في العصور الوسطى ، كان نتيجة

هذه الصراعات العسكرية انفصال العالم المسيحي إلى كنيستين شرقية وغربية.

ركزت الكنيسة الشرقية على الالتزام بالعقائد الكنيسة التي تنادي بإلوهية وقدسية المسيح عليه السلام بينما ركزّت الكنيسة الغربية الكاثوليكية على تأييد سلطة الكنيسة المتمثلة في رجل الدين الأول «البابا» ، وأخذت تعمل على خلق كيان له «أي للبابا» في وجه الكيان العلماني ، وصار بذلك نواب المسيح سياسيين بمعنى الكلمة ، وأصبحوا يلعبون السياسة ويخدعون ويكذبون على أعدائهم دونما أي اعتبار للعقيدة فيحيكون المؤامرات وينشبون الحرب ويحيكون الدسائس باسم الدين .

الذي يهمنا من هذا السرد للمشاكل الفكرية والصراعات المذهبية عند المسيحيين هو إظهار المشهد الفكري والمنهاج التخميمي الذي ظهر فيه ما يعرف بالرهبان ، ففي وسط هذه الاضطرابات العسكرية مال بعض المسيحيين إلى حياة الرهبنة والتبتل بتعذيب الجسم وعدم الكسب والاعتماد على التسول والصدقات ، وخلق هذا عددا غير قليل من المريدين الرهبان الذين أخذوا يخلقون لأنفسهم أماكن وحرمات ، ووجد نوعاً من التنظيم والطقوس للدخول في نظام الرهبنة ، أصبح يطلبها منه الشيخ أو المرشد ـ كالذي عند المسلمين ـ فكان الراهب عليه أن يثبت جدارته وكفاءته وجديته للدخول في هذا النظام ، وعندما يفعل ذلك عليه أن يرقد على ظهره أمام الهيكل ، ويصلي عليه الرهبان صلاة خاصة مضمونها أن هذا الرجل قد ترك العالم تماماً ، ولم يعد يحسب ضمن أبناء هذا العالم أي ضمن العلمانيين .

وهكذا أخذ الناس أصحاب الميول التقوية يخرجون من الحياة الدنيوية ، ويجمعون حولهم المريدين ويؤسسون جمعيات رهبانية جديدة ، سميت في الغرب بالأخويات ، وكان لكل أخوية منها قوانين حياتية خاصة ونذور معينة ، يشكل إتمامها الدليل المميز لصحة الانتماء إلى تلك الأخويات الرهبانية ، أو الجمعيات المنظمة ، لأنهم كانوا يجدون منها دعامة لسلطتهم الزمنية ، كانت هذه الأخويات أشبه ما تكون بالفرق الإسلامية والطرق الصوفية ، من حيث النشأة والأهداف وطقوس العبادة ، لدرجة أن الباحث يرى فيها تناغماً مع كان يسود على الجانب الآخر في العالم الإسلامي .

وهذه الجمعيات أو الأخويات كثيرة ، نذكر منها لأهميتها ، جماعة السيسترشيان التي أسسها القديس روبير في جنوب فرنسا جنوب مدينة ويجون ، حيث أسس ديراً وفرض فيه نظام القديس بندكت ، الذي يرفض كل رفاهية وفخفخة ، وشيئا فشيئا اتخذت هذه الجمعية صفة الرسمية ، عندما اعترف بها البابا باسكال الثاني ، وهذه

المنظمـة أصـبحت مـن أهـم المنظمـات الديرى ـة بعـد أن التحـق بعـضويتها القـديس برنادِ الذي انتشرت أفكاره في كل العالم الكنيسي الكاثوليكي ، بل في كل أنحاء العالم ، وإليه يرجع تأسيس قواعد منظمة رهبان الهيكل الصلبيين ، وإليه يرجع الفضل في حـل نزاعات البابا أنوسنت الثاني ضد خصومه التي حفلت بها الكتب المتخصـصة في تـاريخ أوروبا الوسيط ، كمـا أن برنـاد هـو الـذي حـرّض علـى الحـرب الـصليبية الثانيـة ضـد المسلمين سنة 1146م ، لقد ألف القديس برناد عددا من التراتيل والخطب الدينية التي لا تزال بعـض ترتيلاتهـا وترنيماتهـا تتلـى في الكنـائس الكاثوليكيـة الرومانيـة والكنـائس البروتستانتية حتى يومنا هذا .[1]

هذه الفرق إضافة إلى جمعية الستسترشيان الرهبانية وجدت جمعية الفرنسيسكان نسبة إلى فرنسيس الأسيسزي سنة 1182 الذي اعتنق الرهبنة ، وأخـذ يتجـول واعظـاً في البلاد الأوروبية ، وكان نذره الفقر التام والعفاف والتواضع والطاعـة ، وسمـى هووأتباعـه أنفسهم بالرهبانية العصرية ، وتعتبر منظمة الفرنسيان الرهبانية الكاثولوكية أكبر المنظات الرهبانية في العالم ، حيث قدمت 98 رجلاً قديساً ، اعتلـى مـنهم سـتة أشـخاص عـرش البابوية ، وتعتبر منظمة الفرنسيسان من أخطر المنظمات علـى الإطـلاق، وذلـك بفعـل أنشطتها التبشيرى ـة والتحريضية لدخول الناس للمسيحية .

كما توجد منظمة جماعة الرهبان الدومنيكان التي يرجـع تأسيـسها إلى القـديس دومنيك الإسباني 1215 ، وتعد هذه الجمعية من الأهمية بمكان ، حيث تقـول مـصادرنا إنها تكونت من الهراطقة الخارجيين على تعاليم الكنيسة ، وذلك عندما تجمعـوا ـ لعلـه بمحض الصدفة ـ في جنوب فرنـسا ، وحـولهم القـديس دومنيـك إلى رهبـان مـنظمين، وأخذوا يباشرون عملهم التعبدي التبشيرى ، حتى حازوا على مباركـة أبوسـتت الثالـث ، ونظرا لعمق ثقافتهم فقد عُرفت هذه المنظمة بمنظمة الأخـوة الـواعين ، ومـا يميـز هـذه المنظمـة عـن المنظمـات الأخـرى أن أفرادهـا أصـبحوا مستـشارين وأسـاتذة جامعـات وبابوات ورؤساء ، هذا نموذج من المنظمات الرهبانية الكاملة .

أما بالنسبة للمنظمات أو الجمعيات الأخرى ،[2] أو جمعيات فرسـان المـسيح ، فكانت تتمثل في رهبانيـات القـديس يوحنـا الاستـشارية ، الـذي أسـس منظمـة فرسـان

(1) سعد رستم: الفرق والمذاهب المسيحية ، مرجع سابق ، ص 110 ، 113 .
(2) دي لاسي أوليرى ، الفكر العربي ، ص 174 .

القديس يوحنا ، لأجل العناية بالحجاج الفقراء والمرضى مع آخرين ، عرفت باسم الأخوية الروحية ، وكانت في البداية خاصة بأبناء النبلاء ، ثم أصبحت بعد ذلك غير ذلك ، ونظمت على أسس ثلاث فئات: فرسان وكهنة وأخوة ، وكان هدف هذه المنظمة الجهاد ضد غير المؤسسين من مسلمين وغيرهم ، ولو أن المسلمين هم المستهدفون بشكل عام ، وفرسان هذه المنظمة هم الذين عرّفهم التاريخ بأنهم فرسان رودس سنة 1291 ، وذلك عندما طُردوا من الأراضي المقدسة على أثر سقوط عكا فحط الرحال بهم في رودس ، ثم طردهم العثمانيون منها فحط بهم الرحال بفعل البابا والإمبراطور شارل الخامس ، وأصبحوا سادة مالطة حتى سنة 1530م ، ولا تزال بقايا هذه الجمعية في بعض النشاطات الخيرية بالمستشفيات وفي الحروب ، عندما نجد أعضاءها ينشطون في مداواة الجرحى .

توجد كذلك منظمة فرسان التيتون الألمانية ، ويبدو أن نشأتها كانت قومية ، حيث تركز نشاطها في أوروبا الشرقية ، المجال الجغرافي للنفوذ الألماني المباشر ، حيث مهدوا للاستيطان الألماني بأوروبا الشرقية ، وفي كل الأحوال كان مصيرها كمصير أخواتها المنظمات الأخرى ، عندما حلها نابليون بونابرت ولم يعد لها وجود أو نشاط إلا في بعض الأعمال الخيرية الفردية ، أو ما يلحظ على بعض منتسبيها باللباس أو الرداء الأبيض (المعطف) الملصق عليه إشارة الصليب السوداء.

ولكي لا ننجر إلى الحديث عن المنظمات والهيئات والجمعيات الدينية أو السياسة التي عرفتها أوروبا والبلاد المسيحية ، نختصر القول إن كل هذه المنظمات أو الجمعيات أو الأخويات ، كانت أشبه ما تكون بالطرق عند الصوفية المسلين ، ذلك من حيث أنظمتها الخاصة وسيطرة المرشد أو الشيخ أو الرئيس على المريدين، وفي بعض الأحيان أشبه ما تكون بها من حيث الأعمال التي تقدمها أو الأفكار التي تروج لها أو من حيث النظرة إليها ، ووصف بعضها مراحل تاريخية بأنها مارقة ونعت أعضاؤها في بعض الأحيان بالهرطقة من قبل أعدائهم .

وإذا كنا قد أشرنا بشكل موجز إلى تلك الأفكار التي زخر بها التاريخ الإسلامي ، وكيف أن بعضها يتعارض مع البعض الآخر ، وأن تهمة الزندقة أو الإلحاد ، كانت تلصق ببعض الفلاسفة والمتصوفة ، فإننا لا نجد مفراً من الحديث ، ولو بشكل مختصر عن الهراطقة ، التي يُقصد بها المروق والإلحاد عن المسيحين ، ولا تقصد الهرطقة بمعناها العام الذي يقصد به في بعض الأحيان الخروج عن مجموعة الأفكار الدينية ،

التي يؤمن بها السواد الأعظم من الناس في مجتمع ما ، ولا نعـني بالهرطقـة رأى الأقليـة الذي تدفعه الأغلبية [1] القادرة على عقـاب هـذه الأقليـة في مقارنـة للتـصوف الإسـلامي والرهبنة المسيحية ، ولكن الذي أقصده هنا بالهرطقة ذلك المعنى الذي يتعلـق بالعقيـدة كالذي يقصده الوثنييـون الـذين يؤمنـون بتعـدد الآلهـة ، عنـدما يـصفون الـذين يؤمنـون بالتوحيد بالهرطقة ، وما قصده أصحاب الديانات الـسماوية الـذين وصـفوا تعـدد الآلهـة بالهراطقية .

وترتيباً على ذلك ، لم يظهر النعـت بالهرطقيـة مـن قبـل الكنيـسة لاعـدائها ، إلاّ عندما أصبحت الكنيسة قادرة على فعل ذلك ، أما قبل ذلـك فالكنيـسة ـ كنيـسة رومـا ـ كانت تستقبل المهرطقين أصحاب الآراء الخاصة ، وتوفر لهم الأمانة وتستمع إليهم ، بل تسمح لهم بالترويج لأفكارهم ، ويرجح أن أول ظهور للهرطقيـة كـان في القـرن الثـاني الميلادي ، وذلك عندما أرادت كنيسة روما إرغام الكنائس الآسيوية على الخـضوع لهـا، لكي توحد موعد عيد القيامة ، وعلى قبول التـاريخ الـذي حددتـه الكنيـسة لـه ، فقابلـت الكنـائس الـشرقية هـذا الإجبـار الكنـسي للكنيـسة الغربيـة بـالرفض ، وأصـرت علـى الاستقلال ، فلجـأ أسـقف رومـا حينهـا ، الأسـقف فيكتـور ، إلى تكفـير كـل الكنـائس الآسيوية ، واتهامها بالهراطقية بطردها جميعاً من حظـيرة الكنيـسة المـسيحية ، ويمكـن القول إن هذا القرار كان أول قرار حرمان جماعي تصدره الكنسية ضد أعدائها [2] .

الخلاصة

ومهمـا يكـن مـن أمـر ، نخلـص إلى القـول في موضـوع التـصوف الإسـلامي إنه منطلق من أن المعرفة الإسلامية الحقة هي التي تؤمن ، وتؤكد توحيد الله ﷻ بوسائل وأدوات وأساليب ، تحترم الإنسان ولا تقوم على استغلاله ، وتكون غايتها إسـعاد البـشر جميعاً ، ولذلك نحن نرى أن قضية التصوف وغاياتـه قـضيه حـساسة ، تتعلـق بالعقيـدة ومستقبل الإسلام والمسيحية ، ولذلك نهتدي إلى وجود تصوف يمكن وصفه بالتـصوف الإيجابي ، وهو ذاك الذي يتمثل في الممارسة المقبولـة مـن قبـل الإنـسان الكامـل وفقـاً لغايات ، يحترمها الجميع ولا يشمئز منها البعض ، وأنه هـو التـصوف القـديم الجديـد العالمي المنتشر في كل قارات الدنيا ، لا حـدود لـه ولا سـدود أمامـه ، بمقـدم الإسـلام

(1) دي لاسي أوليرى ، الفكر العربي ، ص 174 .
(2) نفسه ، ص 185 .

والمسيحية ، بالشكل الذي يرىده الله .

وهذا غير التصوف السلبي الذي يتمثل في النظر إلى الإنسان على أنه فان لا خلاص له إلاّ بالتدرج على درجات ومقامات وأحوال الفناء ، أي بقدر ما يستحق الخلاص ، والتصوف السلبي مظهر من مظاهر تطويع الدين للحضارة الوضعية ، ويضرب المهتمون بهذا الموضوع مثلاً على ذلك بأن المسيحية عندما دخلت أوروبا إلى روما لم تنتصر ، ولكن المسيحية هي التي ترومنت ، وكأنهم يرىدون أن يقولوا إن مسيحية الشرق قبل القرن الثالث هي المسيحية الحقة ، وإن الإسلام حتى القرن الثالث الهجري لم يصبه أي تبديل ، وأن المتصوفة والصوفية قبل هذا التاريخ صوفية مسالمة .

ويمكن إجمال معتقد الصوفية في اعتقادهم بأن الله قادر على أن يمنح الطاقة والتنعيم وشطراً من قدرته القادرة ، لأولئك الذين اصطفاهم من بين عباده المخلصين المتحمسين ، وهم الصوفية ، أي أن الله قادر على أن يتخذ له أولياء من بين الناس ، وأن يتنزل لطفه على أولئك الذين استطاعوا بالمجاهدات ، والرياضة الروحية أن يصلوا إلى حضرته ، ولكن لا يصطفي الله إلاّ أحباءه ، فجلال الرومي كان يقول : « إن حب الله هو السبيل لضمان الآخرة وضمان النجاة من النار ، ولذلك كما ترى أن الخوف من الله يأتي عند المتصوفة في المرتبة الثانية بعد حب الله ، ولقد تمت الإشارة في هذا البحث إلى قول رابعة العدوية وكاترين الجنوية وغيرهما » .

لقد تميز التصوف السلبي باتباع منهجية التوكل ، ولذلك وصفهم عبد الرحمن بدوي بأنهم أبناء وقتهم .

التصوف الإسلامي مرحلة متطورة من مراحل الزهد ، وذلك بعد أن أصبح الزاهد يعتبر مجاهداته وسيلة للتوجه إلى الله ، وذلك بتأمله الزائد وتفكيره الحاد الطويل ، إلى أن يصل إلى إفناء جسده ونقل روحه لله ، فيصبح يعتقد أن الألوهية يمكن أن تحل به، أي أنه يصبح قطبا ، وينتفي عنه الحجاب ، ولذلك كان يتصور البعض نفسه أنه الله وصرح بقوله : « سبحاني ما أعظم شانى » .

هذا وفي سياق المقارنة بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيح نجدهما متناغمين في كل شيء ، حتى في الأدوات والأساليب التي كانت معتمدة للتعبد، فوجدنا الخلوة والانفرادية والتقشف عند الجميع ، والصوامع والأديرة عند المسيحيين،

ويقابلها الخلوة والرباطات والزوايا عند المسلمين ، أماكن للتصوف وخصوصاً في شمال أفريقيا .

ولكن كيف هو أمر التصوف في شمال أفريقيا ؟ وما هي مظاهره ؟ بل ماذا عنه بشكل عام ؟ إن المتتبع لتاريخ العقيدة في شمال أفريقيا يجد أن المظاهر التعبدية اللاإسلامية واللامسيحية كانت موجودة ، وذلك فيما نلمسه من اعتقاد أن العالم تسكنه الأرواح الطيبة والخبيثة التي يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة وتسكن مؤقتا في الأحجار والأشجار والحيوان والكائنات البشرية، توارثها الناس من أسلافهم الأقدمين الذين ظلوا يعتقدون ، أقصد عبادة الصور والصخور والينابيع والأنهار والحيات ... الخ .

نلمس الطقوس التعبدية للمعبودات القديمة في شمال أفريقيا ، في تلك النيران الشعائرية التي توقد من أجل القضاء على التأثيرات الشريرة والأرواح المؤدية إليها، ونلمس ذلك فيما يعرف بليلة الضلالة أو ليلة السعادة ، حيث يتم الاتصال بين الرجال والنساء من أجل الإخصاب الزراعي ، ويسمى البعض هذه الطقوس بالفجور المقدس، لأنه كان يتم في المغرب الأقصى على الوجه التحديد بين العروسين في مسجد المدينة .

وتنتقل لنا مصادرنا أن التصوف انتشر في أفريقيا في القرن التاسع الميلادي ، بفعل عوامل عدة ، أهمها بذخ الحكام ، وميول أهل السنة إليه ، وانتشار الرباطات الجهادية ، فالتصوف بشمال أفريقيا ارتبط إلى حد كبير بالرباطات الإسلامية ، التي كان أول وجود لها ، فيما تزعم بعض المصادر سنة 180هـ 796م ، بالمنستير ، وأن الرباطات كانت من أجل الجهاد والتعبد للمسلمين ، وأصبحت مقراً للفارين من هجوم العدو، وأخذ المسلمون يتجمعون شيئاً فشيئاً بهذه الرباطات ، ويتعبدون فيها بواسطة شيخ يختارونه لإرشادهم ، وكانوا يحددون وإياه أوقات العبادة وأوقات العمل حسب ظروفهم، فكانوا أشبه ـ في تنظيماتهم هذه ـ بالنظام الديرى في أوروبا على عهد النبدكيين ، ثم بعدئذ عند أصحاب ديركلوني بأوروبا .

في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي تحولت هذه الرباطات إلى زوايا أي مقام للعبادة ، وأصبح يقصدها الناس لأخذ البركة ولمزيد التعبد ، وأخذ الطابع الصوفي للزوايا ينمو شيئاً فشيئاً ، وأخذ يلعب دور المؤسسة الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وتزامن هذا التطور باعتراف السنة بالتصوف عن طريق ثقوب ضيقة ، نظروا إلى المتصوفة من خلالها ، وأخذوا يعالجون القضايا المترتبة على وجوده

خصوصاً في صفوف عامة الناس وبعض من العلماء ، ولعل الإجراءات التي اتخذها القشيرى في رسالته سنة 437هـ / 1045م إلى الصوفية والغزالي ، لعل الإجراءات التي اتخذها كل منهما كانت كفيلة بجعل التصوف يسير وفقاً للشريعة الإسلامية ، فكان الغزالي يحرض على أن الإيمان بالقلب وحده ، لا يأتي بطقوس تعبدية أخرى .

إن الطقوس التعبدية للطرق الصوفية لشمال أفريقيا سواء بتلك الطقوس التعبدية التي أشرنا إليها عند الطرق الصوفية بالمشرق ، كالدوسة والتسابيح وترتيل وتجويد القرآن وضرب الدفوف وأكل الشيش وبلع الخناجر ... الخ من أنواع التعبد السلبي الذي لا يتوافق والشريعة ، كما أننا نجد أن تصوفاً يعتمد الصلاة الزائدة والخلوة بالبيت وكثرة التسابيح أيضاً كان موجودا ، وهو ما يمكننا وضعه في خانة التصوف الإيجابي ، ولقد أشرنا إلى تطور ونشأة الفرق الإسلامية بالشرق ، وكيف اتخذت المجموعات المتصوفة من الرباطات زوايا في شمال أفريقيا .

وفي الختام يمكنني القول إن التصوف الإسلامي يرتبط بالتصوف المسيحي ، من حيث النشأة والتطور والغايات ، وفيما آلت إليه دور التعبد من أديرة وزوايا ، حيث أصبحت بمثابة إقطاعيات وجهت لها الأنظار بالنقد والتجريح .

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم .
2. الكتاب المقدس ، كتاب العهد القديم ، وكتاب العهد الجديد ، دار الكتاب المقدس .
3. ابن خلدون .
4. الطبري ، محمد بن جريـر ، تـاريخ الطـبري ، نـور الـدين للطباعـة والنـشر ، بـيروت ، 1985م .
5. دي لاسي أوليري ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، دار الكتـاب اللبنـاني ، بـيروت ، 1972م .
6. اللواء ، حسن صادق ، جذور الفتنة في الفـرق الإسـلامية منـذ عهـد الرسـول ﷺ حتـى اغتيال السادات ، مكتبة مدبولي ، ط1 ، 2004 .
7. يوحنا الآسيوي ، تاريخ الكنيسة ، ترجمـة صـلاح عبـد العزيـز محجـوب ، المجلس الأعلي للثقافة ، القاهرة ، 2000 .
8. د . ميـسس عـوض ، الهرطقـة في الغـرب ، دار الانتـشار العربـي ، بـيروت ، ط1 ، 1997م ، بيروت ، لبنان .
9. توري آندريه ، التصوف الإسلامي ، ترجمة عدنان عباس علي ، منشورات الجمل ، ط ، ألمانيا ، 2003 .
10. أحمد علي زهرة ، الصوفية وسيلتها إلى الحقيقة ، 2004 ، سورية .
11. أحمـد التقـشيندي الخالـدي ، الطـرق الـصوفية ، الانتـشار العربـي ، بـيروت ، ط1 ، 1997م .
12. الشيخ خالد بن يونس ، التصوف قلب الإسلام ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 2005 .
13. سعد رستم ، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، الأوائـل للنـشر والتوزيع ، ط1 ، 2004 .
14. يبارغريمال وجاك بيارميوت ، ومارسيل باكو ، ورنيه راينـال ، موسـوعة تـاريخ أوروبـا العام ، منشورات عويدات ، بيروت وباريس ، ط1 ، 1995م .

15. د . عبد الواحد ذنون طه ، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والشرق ، دار الإعداد الإسلامي ، ط1 ، 2005 .

16. د . رجب محمد عبد الحليم ، عصر النبوة والخلافة الراشدة ، دار النهضة ، القاهرة .

17. د . شوقي أبو خليل ، علماء الأندلس ، إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية ، دار الفكر ، دمشق ، 2004 .

18. محمد علي المعلم ، عبد الله بن سبأ ، الحقيقة المجهولة ، دار الهادي ، ط1 ، 1999م .

19. د . محمد أمين صالح ، العرب والإسلام من البعثة حتى نهاية خلافة بني أمية، مكتبة النهضة ، القاهرة ، 1984م .

20. فاضل محمد عواد الكبيسي ، فيليب حتي ، المستشرقون المعاصرون ، دراسة نقدية ، دار الفرقان ، عمان ، 2005 .